الطبيعة فى فلسفة أفلاطون

بقلم الاستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية

(ا) لم يكتب أفلاطون فى العلم الطبيعى إلا فى شيخوخته بعد أن تقادم عهده بنفور سقراط من الطبيعيات، وفرغ من بحث المسائل السقراطية والسوفسطائية. ولم يكن معقولا أن يقنع من الطبيعة بأنها شبح زائل وأن يدع أصلها خافيا بعد نقده لمعنى المشاركة، وأن يترك أبحاث الأكاديمية فيها دون أن يسجلها بقلمه ويطبعها بطابعه، وهو الذى وهب عقلا وثابا إلى جميع نواحى الوجود. أقبل إذن على الطبيعة يقصد خاصة إلى أن يبين كيف تحصل الصور الكلية فى الأجسام، وكيف يتحقق النظام بين أجزاء العالم على حسب علاقات دائمة، فأنطق « تيماوس » الفيثاغورى بقصة تكوين العالم. وإنما أورد آراءه على لسان واحد من الفيثاغوريين لأنها قائمة على مبادئ عقلية، وملأى بالمعانى والتشبيهات الرياضية، مما يؤيد تزايد ميله للفيثاغورية. وإنما آثر القصة على الحوار والخطاب، ليدل على أن العالم المحسوس لا يوضع فى قضايا ضرورية كالعالم المعقول، وأن العقل البشرى لا يستطيع أن ينفذ إلى أغراض الله فى الطبيعة، فليس أمامه إلا الرأى والتشبيه (Timée2gc) — وفى هذا الموقف نقد ضمنى لقدماء الطبيعيين الذين عرضوا مذاهبهم على أنها وصف حقيق لنشوء الأشياء، وتواضع يشعر بصعوبة البحث.

(ب) على أن المبادىء التى يصدر عنها أفلاطون أقدم من « تيماوس »، اهتدى اليها منذ الشباب، ثم تعهدها بعد ذلك يحدد مرماها ويعالج تطبيقها فى الجزئيات. فقد قص فى «فيدون» حكاية حاله بازاء العلم الطبيعى حيث قال (بلسان سقراط) ما خلاصته: لما كنت شابا كان لى ولع غريب بهذا العلم لأنى كنت أجد له بهاء عديم النظير من حيث إنه يعلم علل كل شىء ما يوجبه يظهر الشىء للوجود، وما يوجبه يفسد، وما يوجبه يوجد. وكثيراً ما كنت (أقاسى الأمرين فى بحث المسائل الطبيعية على طريقة القدماء)، حتى انتهيت إلى أنى غير كفء لهذا البحث، بل إنه وصل بى إلى حد من الغاية بعيد، تشككت عنده حتى فى الأشياء التى كنت أعتقد من قبل أنى أعلمها، (وهذا نقد صريح للنظريات القديمة القائمة على المادة)، وسمعت ذات يوم قراءة فى كتاب لانكساغور فاذا فيه هذا الكلام « هو العقل الذى رتب الكل، وهو علة الأشياء جميعاً »، ففرحت لمثل هذه العلة وبدا لى أن من الخير جعل العقل علة كلية: وفكرت أنه إذا كان الأمر كذلك فان هذا العقل المرتب الذى يحقق النظام العام يرتب أيضا كل شىء بالخصوص على أحسن وجه ممكن بحيث إذا أردنا استكشاف العلة التى بمقتضاها يولد الشىء ويفسد ويوجد، فما علينا إلا أن نستكشف أحسن حال

لوجوده وفعله وانفعاله . وتناولت الكتاب بشغف ولكنى ألفيت صاحبه لا يضيف للعقل أى شأن فى العلل الجزئية لنظام الأشياء، بل بالضد يذكر فى هذا الصدد أفعال الهواء والأثير والماء وجملة تفسيرات أخرى عجيبة ؛ مثله مثل رجل يبدأ بأن يقول إن سقراط فى جميع أفعاله يفعل بعقله، ثم يعلل جلوسى هنا (فى السجن) بحركات عظامى وانقباض عضلاتى وانبساطها، ويعلل حديثى بفعل الأصوات والهواء والسمع وما أشبه ،ولا يعنى بذكر العلل الحقة ، وهى : لما كان الأثينيون قد رأوا أحسن ان يحكموا على، فلهذا السبب عينه رأيت أنا أحسن أن أجلس فى هذا المكان أى أقرب إلى العدالة أن أتحمل بقائى ـ حيث أنا ـ القصاص الذى فرضوا؛ ولولا ذلك لكانت عظامى وعضلاتى منذ زمن طويل فى ميغارى أو فى بويسيا حيث كان حملها تصور آخر للأحسن. فتسمية مثل هـذه الأشياء عللا منتهى الحماقة ؛ أما إن قيل لولا العضلات والعظام فلا أستطيع تحقيق أغراضى فهذا صحيح؛ وعلى ذلك فما هو علة حقاً شىء، وما بدونه لا تصير العلة علة شىء آخر . ولكن الأكثرين يدعون هذا علة ؛ أما القوة التى يتحقق بفعلها النظام، فلا يبحثون عنها، ولا يتصورون أنها إلهية ، ولا يدركون أن الخير رباط كل شىء وأساسه (Phédon 96a-99c)

ويعود إلى هذا التقسيم فى «تيماوس» ، ويقول إن الأكثرين يعتبرون العلل الثانوية عللا رئيسية؛ ولكن يمتنع أن يكون مثل هذه العلل أهلا لأن يحصل على الفكر والاستدلال ، فإن الموجود الوحيد الكفء للحصول على العقل هو النفس ـ يجب الجهر بذلك ـ والنفس غير منظورة ، بينما العناصر والأجسام جميعا منظورة . فمن يحب العقل والعلم يجب أن يطلب العلل ذات الطبيعة العاقلة وهى أوائل ، أما العلل التى تتحرك بعلل أخرى وتنقل الحركة إلى غيرها بمقتضى فعل ضرورى فلا يطلبها إلا فى المحل الثانى (46 d e) . ـ ويذكر فى المقالة العاشرة من «القوانين» أن الحركة قسمان :حركة منقولة أو قسرية خاصة بالمادة، وحركة ذاتية خاصة بالنفس، والأولى صادرة دائما عن الثانية (896-894) فينتج أن العلل نوعان : علة ذاتية عاقلة حاصلة فى النفس معلولها ملحوظ قبل وقوعه ، وهى علة أولى وبالذات تحدث بالعقل معلولات خيرة جميلة، وأخرى قسرية ثانوية خلو من العقل، تتحرك بغيرها، وتعمل اتفاقا إلا أن تستخدمها العلة العاقلة كوسيلة ومادة فتوجهها إلى أغراضها .

فمن هاتين الوجهتين ـ وجهة الحركة ووجهة الترتيب ـ يقرر أفلاطون أن العالم حادث لأنه جسم مرئى ملموس ،وكل ما هو محسوس فهو خاضع للتغير (Timée bc)، ولأنه آية فنية غاية فى الجمال ، ولا يمكن أن يكون الترتيب البادى فيما بين الأشياء بالاجمال ، وفيما بين أجزاء كل منها بالتفصيل نتيجة علل اتفاقية، ولكن صنع عقل كامل، توخى الخير العام، ورتب كل شىء عن قصد على حسب نموذج هو الوجود الدائم (Timée 28a, 29a)؛ ذلك بعد أن أعلن أن كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن علة (28a) . فأفلاطون روحى فائق يؤمن بالعقل من أعماق نفسه ويعليه على المادة ويضعه فى روح غير منظورة، ولكنه يمضى هنا (كما فى نظرية المعرفة (١)) مع ميله

(١) راجع الجزء الماضى (يونيو سنة ١٩٣٢) من مجلة (المعرفة) ص ٢٠١

لاستيعاب الأفكار جميعاً دون أية تضحية وسلكها فى مذهب واحد كلا منها بمقدار، فيفسح للمادة وللآلية (ويسميها الضرورة) مكانا إلى جانب الغائية، ويذهب إلى أن العالم إنما حدث وأن الأجسام إنما تفعل بسيطرة العقل على الضرورة وتوجيهها إلى الأحسن على النحو الآتى :

(ج) لما كان الصانع (Démiurge) خيراً والخير بريئاً من الحسد، فقد أراد أن تحدث الأشياء شبيهة به على قدر الامكان، فرأى أن العاقل أجمل من غير العاقل، وأن العقل لا يوجد إلا فى النفس فوضع العقل فى النفس والنفس فى الجسم، وصور العالم كائنا حياً عاقلا لا على مثال شىء حادث أياً كان بل على مثال « الحى بالذات » أجمل الاحياء المعقولة، والكامل من كل وجه، الحاوى فى ذاته جميع هذه الاحياء المعقولة، أى المثل، كما أن العالم يحوى جميع الأحياء التى من نوعه. فالعالم واحد لأن صانعه واحد ونموذجه واحد، وهو كل محدود ليس خارجه ما يؤثر فيه ويفسده فلا تصيبه الشيخوخة ولا الأمراض، وهو كروى لأن الدائرة أكمل الأشكال، متجانس يدور على نفسه فى مكانه . أما نفسه فهى سابقة على الجسم صنعها الله من الجوهر الألهى البسيط والجوهر الطبيعى المنقسم ومزاج من الاثنين فكانت غلافاً مستديراً للعالم تحويه من كل جانب، وتحركه حركة دائرية، وتدرك المحسوس المنقسم والمعقول البسيط ، وتشعر بالسرور والحزن والخوف والرجاء والمحبة والبغض، وتملك أن تخالف قانون العقل فتصير شريرة حمقاء فتضطرب حركتها وتنزل النكبات بالعالم ـ وأما جسمه فلما شرع الله يركبه أخذ ناراً « ليجعله مرئيا » وترابا ليجعله ملموساً ، ووضع الماء والهواء فى الوسط ـ (27d-37c)

(د) غير أن هذه العناصر لم تكن كذلك منذ البدء ، بل إن العالم فى الأصل مادة رخوة (masse malléable) أى غير معينة بالمرة، عسيرة الفهم غامضة ، كل ما نعقله عنها أنها موضوع التغير أو المكان (Lieu) والمحل (Receptacle) الذى تحصل فيه الصور المعينة، لأنه إذا كان الأصل معيناً، وكانت له صورة ذاتية فلا يفهم التغير . وعلى ذلك فليست العناصر مبادىء الأشياء لأنها معينة من جهة ، ولأنها تتحول بعضها إلى بعض من جهة أخرى، فيدلنا تحولها على أنها صور مختلفة تتعاقب فى موضوع واحد غير معين فى ذاته. ألا ترى أن ما نسميه ماءاً إذا تكاثف صار حجارة وتراباً، وأن هذا الشىء نفسه إذا تخلخل صار هواءاً وريحاً، وأن الهواء إذا اشتعل تحول ناراً، وأن النار إذا تقلصت وانطفأت عادت هواءاً، وأن الهواء إذا تكاثف صار سحابا وضبابا، وأن هذه إذا تكاثفت جرت ماءاً وهكذا دواليك (48a-57b) ـ هذه المادة الاولى كانت تتحرك حركة اتفاقية باستمرار حتى اتحدت ذراتها على حسب تشابهها فى الشكل فألفت العناصر الأربعة ـ النار مؤلفة من ذرات هرمية أى ذات أربعة أوجه تشبه سن السهم، لذلك كانت أسرع الأجسام وأشدها، والهواء مؤلف من ذرات ذات ثمانية أوجه أى من هرمين، والماء مؤلف من ذرات ذات عشرين وجهاً، والتراب من ذرات مكعبة، فمثلت فيها تتحد وتجمد وتلين أى تتقلد صور ما يسمى بالنار والهواء والماء والتراب ، ثم صور المثل الأخرى « على نحو يصعب وصفه »

دون أن تكون فى نفسها كذا أو كذا (52d-57d)

(هـ) وبعد أن مر العالم بهذا الدور من الضرورة ، وتقبلت المادة هذا النوع من التنظيم بتوزعها عناصر أربعة ـ وهو أقصى ماتستطيع أن تبلغ إليه بذاتها ـ ظلت العناصر مضطربة هوجاء « كما يكون الشىء وهو خلو من الإله » حتى عين الصانع لكل منها مكانه ، ورتب حركته ، ثم فكر فيما عسى أن يزيد العالم شبها بنموذجه. ولما كان النموذج حياً أبدياً فقد اجتهد على قدر استطاعته أن يجعل العالم أبدياً لكن لا كأبدية النموذج فإنها ممتنعة على الكائن الحادث فعنى بصنع صورة متحركة للأبدية الثابتة ، فكان الزمان يتقدم على حسب قانون الأعداد ، ووجد الزمان منذ وجدت السماء ، ولن ينتهى إلا إذا قدرت للسماء نهاية ، فإن أقسام الزمان لا تلائم إلا المحسوس ، ونحن حينما نطلق الماضى والمستقبل على الجوهر الدائم فنقول إنه كان وسيكون ندل على أنا نجهل طبيعته إذ لا يلائمه غير الحاضر ؛ ورأى الصانع أن خير مقياس للزمان حركات الكواكب فصنع الشمس والقمر والكواكب الأخرى متقدة مستديرة ؛ وجعل لكل منها نفساً محركة عاقلة خالدة تدبرها . ولما كان مبدأ التدبير إلهيا بالضرورة فقد صنع هذه النفوس مما تخلف بين يديه بعد صنع النفس العالمية ، إلا أنه جعل تركيبها أقل دقة من تركيب هذه فكانت أدنى منها مرتبة ، ولكنها إلهية مثلها خالدة بالرغم من كونها مركبة يأتيها الخلود لا من طبيعة عنصرها (وكان أفلاطون قد ذهب إلى هذا الرأى فى المقالة العاشرة من الجمهورية) بل من خيرية الصانع إذ تأبى عليه أن يهدم أحسن ماصنع 37c S99 .

ثم اتخذ منها أعواناً تصنع نفوس الأحياء الفانين . وإنما مست الحاجة إلى هذه النفوس لتتحقق فى العالم جميع مراتب الوجود نازلة من أرفع الصور إلى أدناها ، ويكون العالم كاملا حقاً ، وإنما وكل أمر صنعها إلى نفوس الكواكب لأن الصانع الأول لا يصنع إلا ما يماثله أى نفساً إلهية باقية ، فلا يكون هناك تفاوت .

أخذ ما تخلف له من الجوهرين الثانى والثالث ، وصنع مزاجاً قسمه على الكواكب وكلف آلهتها ، أى نفوسها ، أن تنزله أجزاءاً فى أجسام مهيأة لقبوله ، وأن تضم إليه نفسين مائتتين : إحداهما انفعالية والأخرى غذائية ؛ أما الانفعالية فغضبية وشهوية تحس اللذة والألم والإقدام والخوف والشهوة والرجاء ، يضعونها فى أعلى الصدر بين العنق والحجاب لكى لا تدنس النفس الخالدة المستقرة فى الرأس ، وأما الغذائية فيضعونها فى أسفل الحجاب فإذا ما انحل هذا المركب عاد الجزء الخالد إلى الكوكب الذى هبط منه : إن كان صالحاً قضى هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة الكوكب ؛ وإن لم يكن فإنه يولد ثانية امرأة ، فإن أصر على شقاوته ولد ثالثة حيوانا شبيهاً بخطيئته ، وهكذا بحيث لا يخلص من آلامه ولا يعود إلى حالته الأولى حتى يغلب العقل على الشهوة ، ويصعد السلم فيرجع رجلا صالحاً .

ودرجات هذا السلم : الأنواع الحيوانية التى أوجدتها الخطيئة والجهالة ، فإن الآلهة صنعوا

الرجل كاملا بقدر ما تسمح به طبيعته ، ولكن اتصال النفس بالبدن أعماها ، فالرجال الجبناء الذين سلكوا سيرة رديئة تحولوا فيا يظهر نساء عند ولادتهم الثانية . ونشأ الطير من رجال لم يكونوا أشراراً ، بل عنوا بالعلم ودراسة الظواهر السماوية ، ولكنهم كانوا طائشين سذجا ، فتوهموا أن البراهين التى تكتسب فيها بالبصر هى الأمتن ، وصنعت الدبابات من الرجال الذين لم يعنوا قط بالفلسفة ، ولم ينظروا فى الأجرام السماوية فكانوا منصرفين عن توجيهات النفس العاقلة ، منقادين للنفس التى فى الصدر فانحنت أعضاؤهم الأمامية ورءوسهم إلى الأرض ، مجذوبين بما بينهم وبينها من مشابهة ، واستطالت جماجمهم وتشكلت أشكالا عديدة بحسب الكيفية التى جعلت كلا منهم يكبت حركات النفس بالكسل ، وهذا هو السبب فى أنها تولد بأربع أرجل أو أكثر . ولما كانت الزحافات والديدان من أغبى الناس زاد الآلهة فى عدد قوائمهم لشدة انجذابهم نحو الأرض ، وبسط أغبى هؤلاء جسمهم كله على الأرض لحرمهم الآلهة الأرجل فزحفوا زحفاً . أما الحيوانات المائية فقد نشأت من أشد الرجال غباوة وجهلا ووضعت فى أوطأ المنازل. وهكذا كان الأحياء فى ذلك الزمان واليوم أيضاً يتحول بعضهم إلى بعض بحسب ما يربحون أو يخسرون من العقل Timée 76d, 90c S99 Lois 903d 899

وأراد الآلهة أن يلطفوا أثر الحرارة والهواء فى الانسان ــ مع ضرورتهما له ــ فزجوا جوهراً مماثلا لجوهر الانسان بكيفيات أخرى ، وأوجدوا طائفة جديدة من الأحياء هى الأشجار والنباتات والبذور ، تحيا بنفس غذائية ، وليست هذه النفس حاصلة على رأى أو استدلال أو عقل ، ولكنها تحس اللذة والألم والشهوة ، وهى منفعلة أبداً ــ عدمت الحركة الذاتية فكانت حياً مثبتاً فى الأرض (Timée77)

(و) هذا إيجاز لحديث تيماوس فى مواضعه الفلسفية ، أما ما يتخلله من كلام طويل فى الفلك ، وفى أشكال العناصر وتحولاتها ، وأصناف كل منها ، وفى الجماد المتكون من الماء والتراب ، وفى الجسم الانسانى ، حواسه وأعضائه ووظائفها ، وفى الطب ــ فعلم قديم لاشأن للفلسفة فيه ، سوى أنه يفسر الأجسام وأفعالها تفسيراً آلياً ، حتى الاغتذاء والدورة الدموية والتنفس والشيخوخة والموت ، فإن الأجسام جميعاً مركبة من نفس العناصر ومتمشية على نفس القوانين ــ إلا أن هذه الآلية خاضعة لتدبير الصانع يتخذ القوانين والعناصر توابع وأعواناً (68 e) لتركيب العالم . فمذهب أفلاطون فى الطبيعة مزاج من الآلية والغائية كما قلناه يستوعب المحاولات القديمة كلها ويؤلف بينها بمقدار ، فهو يأخذ الآلية عن قدماء الطبيعيين ، ويأخذ عنهم لفظ الضرورة ، ولكنه يحول معناه من النظام والقانون إلى الاتفاق الصرف ، فيسلب عن المادة ما كانوا يضيفونه لها من الحركة الذاتية المرتبة ، ليضع الترتيب والفعل الذاتى فى العقل الذى قال به انكساغور بحيث نستطيع أن نقول إنه إذا كان هناك أربعة عناصر أولية ، وكانت الكواكب تدور ، وكان

لكل منها مداره، وكان لكل جسم طبيعي خواصه، وكان رأس الانسان فى أعلى ؛ وكان بالجملة كل مانشاهده ، فذلك لأن الأمر لا يمكن أن يكون على خلاف بالاضافة إلى ما يقتضيه العقل والخير ؛ فالغائية متحققة ولكنها خارجة عن الاجسام من حيث هى أجسام، مفروضة عليها من عقل الصانع،وبهذا التحقق يتم لأفلاطون معنى جديد للمشاركة هو أن الصانع يطبع المادة بصور المثل « على نحو يصعب وصفه » ؛ فكأن الصانع والآلهة الأدنين حلقة الاتصال بين العالم المعقول والعالم المحسوس.

نقول « كأن » لأن حديث أفلاطون عن الصانع وأعوانه والنموذج موضع بحث نرجئه إلى ما بعد ، كما أننا نرجىء الكلام على النفس لنقتصر هنا على ما يتعلق بالعلم الطبيعي ؛ فثمة مسألة تستدعى النظر هى مامعنى حدوث العالم فى القصة ؟ ذلك أن أسلوبها غير مألوف فى الفلسفة اليونانية ،حتى لقدقال أرسطو « إن الأقدمين جميعاً ماعدا أفلاطون اعتقدوا أن الزمان قديم، أما هو فقدجعله حادثاً ، إذ قال إنه وجد مع السماء (العالم) وأن السماءحادثة (Phys. VIII, 1, 251b)؛على أن البعض يذهب إلى أن أرسطو قد أخذ الكلام على ظاهره ، وأن أفلاطون إنما توخى سهولة الشرح فقط ،ولم يقصد إلا إلى أن النظام من الله وليس من المادة،وأن العالم متغير وليس ثابتاً كالمثل؛(Touylor, Plato, 442-443) ولكننا إذا قرأنا مثل هذا النص الوارد فى مفتتح القصة، وهو هل وجد (العالم) دائماً،ولم يكن له بداية أم هل ولد وبدأ من طرف أول؟ لقد ولد (28 b) ؛ وإذا ذكرنا قول أفلاطون فى « السوفسطائى» إن « الابداع إلهى وإنسانى ؛ والفرق بينهما أن الله يبدع الأشياء من غير أية مادة سابقة ، أما الانسان فيؤلف صوراً جديدة من مواد أبدعها الله » (265 c)؛ فهمنا من العبارة الأولى أن الحدوث معناه الحدوث فى الزمان لا مجرد الانفعال ولو منذ القدم،وفهمنا من الثانية أنه حدوث المادة والصورة معاً لا حدوث الصورة فى مادة سابقة،وأن ما يوهم عكس ذلك من قوله قبل وبعد وفرض دور الضرورة قبل دور العقل قد يكون ساقه لسهولة الشرح فقط وأراد به بيان عجز المادة من حيث هى كذلك عن إيجاد الروح والنظام .

أما باقى المسائل التى ذكرناها فلسنا بحاجة لاطالة التعليق عليها ؛ ومن الواضح أن أفلاطون أخذ صفات العالم عن برمنيد فجعله واحداً محدوداً كرويا ، وكانت كثرة الفلاسفة على أن هناك عوالم غير متناهية ، وجعله حياً بأظهر وأقوى مما قالوا ، فاقتبس الرواقيون هذا التصور وأيدوا به قولهم بالحلول . وتعمق فى بحث المادة الأولى فمهد لنظرية الهيولى عند أرسطو ؛ ومع أنه أضاف الاحساس للنبات فقد قصر التناسخ على أنواع الحيوان ؛ وكان الفيثاغوريون يمدونه إلى الأحياء جميعاً ؛ واستخرج من التناسخ فكرته الغريبة فى التطور العكسى من الرجل إلى المرأة إلى أدنى الحيوان تبعا للخطيئة ونقص العقل ، هذه الفكرة التى لا ندرى أهو جاد فيها أم عابث أم رامز ؟؟

يوسف كرم

فيبتسم هذا الوادى العظيم وتبتسم تلاله .

هنا تبتسم الزوارق ذوات المجاديف الطويلة والمراكب الشراعية الكبيرة ؛ وهى تتسلق التيار .

وهناك تبتسم مبانى الفنادق ؛ وقد ألقت ظلالها على النيل وعليها سيماء المن والجلال .

وتبتسم الآبار التى ليست بينها وبين الشاطىء إلا خطوات معدودة وماؤها يستقى بدلاء ذات حبال .

يبتسم الفلاح الذى يفرغ الماء بالقرب ، ويبتسم السائح الذى لم ير هذا المنظر فى حياته ، وتبتسم الفتيات راجعات من الترعة وعلى رءوسهن الجرار .

ويبتسم الأطفال العراة ، وهم يصطادون الأسماك من الجداول مقلبين الماء بمنازفهم .

* * *

إن التماثيل التى رأيتها حينما طفت صباحاً ، والتى قد نصبها غرام البشر بالخلود ، ذلك الغرام المجنون الذى أوحى إلى الطغاة أن ينحتوا فى جبهة الفضاء ظلمهم الذى لا كرامة له ، بدل أن ينقشوا فى القلوب ذكرى رحمتهم ! ! نعم ، أقاموها باستعباد آلاف المساكين ، حتى صار كل حجر من أحجار هذه التماثيل مقبرة لهم ورمزاً لفنائهم ! !

وكان أملهم الوحيد أن تهتز السماء لأسرة جباهها ، وتخر الأرض ساجدة تحت أقدامها ؛ ولكن الزمان — وهو يد الكبرياء المهيبة — قد أدب هؤلاء الجبابرة تأديباً ، فجدع أنوف تماثيلهم وحطم أذرعتها وصيرها أنقاضاً مبعثرة ! ! فلا ترى فى الجباه مهابة ، ولا فى الوجوه جلالا ! ! وها هى أسرتها الطامسة قد علاها الوهن والفتور ! !

إن ظهور العدالة بهذه الصورة القاسية قد يبعث فى الزائر شعور المرحمة .

* * *

نعم ، كانت مقبرة تلك التماثيل حينذاك بعيدة عنى ، ولكنى كلما سرحت نظرى نحوها خيل إلى أنها تبتسم ؛ تبتسم عن بعد أطلال معبد ، ويبتسم الكرنك كلما تلفت عنه ! ! تبتسم الأعمدة التى تعبث الأمواج بظلالها المرتعشة الغارقة فى النيل ! ! يبتسم النخيل من الشاطىء ، وعلى رءوسه الشعثاء تيجان من ذهب الأصيل ، ويتمايل كأنه ريشة مصور ترسم فى الفضاء ! !

* * *

قمت من ذلك السطح المائل الهادىء الذى كنت جالساً فيه لأرى مظلة قائمة على مقربة منى ، وما أحسن ما فعلت ! رأيت أمامى نحو ثلاثة عشر نفراً من السائحين ما بين فرنسيين وانجليز وألمان مجتمعين زرافات ووحداناً ، وللكؤوس بينهم رنين ! !

فالفرنسيون يبتسمون لأن كيسهم المملوء يهز الدنيا المدينة لهم هزاً عنيفاً ، وليس في العالم ما يعزيهم إلا هزيمة « سيدان(١) » ، ومع ذلك فالرفاهية تنسى الانسان أنكى الجروح ! !

والانجليز يبتسمون — والابتسامة حق لهم — لأن الدنيا كلها رهن إشارتهم : إن أمروها أن تموت فستموت ، وهم يسلطون كل أقوام البشر بعضهم على بعض ، وينظرون عن بعد فرحين ، فبينما يصطدم الحجر والفولاذ يشغلون غليونهم ! !

والألمان يبتسمون لأن قوة عضدهم كفيلة بأن يصدق العالم جميع مايقولون(٢) ، وما دام البشر لا يعطون القوة للحق فما الحيلة في الحصول على الحق بغير القوة ؟ ؟

هل أنت ضعيف ؟ ليس لك حق إذن سوى البكاء ! !

***

نعم ، في هذه الساحة من الهياج ، هياج السرور وجلبة الحبور ، أنا وحدي المسكين الذي لا يبتسم : قد جلست أبكي ، وحق لي البكاء لأنني غريب في ديار ديني ! !

لا في تراب هذه الديار ولا في نهرها أثر صديق ولا صوت خليل ! !

أيها الشرق العظيم ! أيها العالم المترامي الأطراف ! ليت شعري في أي بقعة من بقاعك نجد أبناءك المترفين المتمتعين بالدعة والطمأنينة ؟ إن رأسك (٣) ترزح تحت الشدائد ! وعضدك واه ، وذراعيك مغلولتان ! ولما يهب نسيم الاستقلال على قلبك بعد ! !

---

(١) هذه الموقعة كانت بين الفرنسيين من ناحية والألمان من ناحية أخرى ، وكان الجيش الفرنسي بقيادة مكماهون (Mc Mahon) ، كان عدده ١٣٠ ألف رجل ، إلا أنه هزم هزيمة فادحة في سيدان هذه ، وأرغم البروسيون الأمبراطور نابليون الثالث — ومعه ما يقرب من مائة ألف رجل — على التسليم في ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ، وعلى أثر ذلك انفجرت الثورة في باريس وأعلنت الجمهورية الثالثة في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ، وتألفت حكومة الدفاع الوطني ، إلا أنها فشلت في الدفاع عن فرنسا ، وتمكن الألمان من الاستيلاء على باريس في ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ بعد أن أخفقت كل مقاومة في داخلها وخارجها ، وتقرر الصلح في فرنكفورت في ١٠ مايو سنة ١٨٧١ على أن تستولي ألمانيا على متز واستراسبرج مع الالزاس واللورين ، وأن تدفع فرنسا لألمانيا غرامة حربية تقدر بخمسة آلاف مليون من الفرنكات ، وأن تحتل الجيوش الألمانية بعض أراضي فرنسا حتى تنفذ هذه الشروط .

(٢) قيلت هذه القصيدة قبل الحرب العظمى أيام أن كانت ألمانيا في أوج عظمتها البرية والبحرية .

(٣) يشبه الانجليز الشرق الاسلامي بانسان رأسه المفكر مصر ، ويده الباطشة تركيا ، وقلبه الشاعر الهند .

قد ملئت فى أرجائك كلها لأرى أمامى داراً للإسلام فكانت قدماى ، وكلما سمعت أصوات الأجانب من كل صوب لم تفض عن روحى الباكية إلا خيبة الأمل ! فهل كان نصيبى أن أكون غريباً فى صميم الاسلام ؟ إن هذه العاقبة لأدهى انتقام الأيام ! !

والآن قد تقدمت بى السنون وضعف عضدى، فعلى أولادى أن يجاهدوا ويأخذوا ثأرى .

• • •

الآن ترتجف الشمس فى الأفق وهى على وشك الخمود ، إلا أن وجهها لا يزال وهاجاً ، وبعد هنيهة انتصب أمامى بغتة عمود نورانى لا تميد به الأمواج؛ ولكن ذلك الظل المتباهى ، ذلك الطابع الوقور الذى خلته يبقى زمناً طويلا حينما رأيته ممتداً ، قد محى فى بضع دقائق من ذاكرة النيل !

فوا أسفا ! إن هذا الظل لم يلق بنفسه فى تلك الدوامة إلا لينضم إلى ملايين الظلال التى غرقت فى النيل ! !

• • •

والآن لا تتراءى الشمس لأن الجبال تحجبها ، فهى حينئذ كشفت عن وجهها فى آفاق أخرى ، والمغرب — وهو حزين — قد صب روحه المتألمة على الآفاق ، وجثمت غربة المساء رويداً رويداً على الأرض !

تغير وجه النيل ، وهو أمامى أصيب قليلا ، وفى مكان ذلك الظل أحمر قان ، ولكنه كان وراء ذلك قريباً من الظلمة !

والجبال أيضاً قد سكنت إلى لون المأتم هذا ، خيامها المغطاة بالضباب قد اسودت ! !

حينئذ لبست الأرض رداء الغروب ، فلما ألقت الظلال نسيجاً مهلهلا على الآفاق المبتسمة قبل هنيهة انبعث فى نفسى الغريبة خيال عال: ظننت أن العالم الصامت يبكى أمامى فنزلت من تلك المظلة وأسعدت عن نور ! !

عبد الحميد الدواخلى

ليسانسيه فى اللغة العربية واللغات الشرقية